بشاعة الإجرام الفرنسي في مدينة سيدي بلعباس

جبران لعرج

جامعة مولاي الطاهر - جامعة سعيدة - oustadjebrane@outlook.fr

الملخص : على غرار باقي المدن الجزائرية فلقد كانت مدينة سيدي بلعباس من المدن التي ترعرع فيها النشاط النضالي و الحركة الوطنية، لتجد نفسها عشية اندلاع الثورة التحريرية الكبرى مهيأة لاحتضان العمل الثوري ضد الاحتلال الفرنسي الذي ظل كابسا على أنفاس المنطقة طيلة عقود طويلة.

سنحاول أن نعالج العمل انطلاقا من إشكاليتين، أولاهما واقع الثورة التحريرية بمدينة سيدي بلعباس، و ثانيهما ما هي أهم الأساليب القمعية التي وظفتها فرنسا خلال الثورة التحريرية بالمدينة؟

الكلمات المفتاحية: بشاعة الإجرام الفرنسي ؛ مدينة سيدي بلعباس؛ النشاط النضالي و الحركة الوطنية ؛ الثورة التحريرية.

.

Resumé : Comme la plupart des villes algériennes, la ville de Sidi Bel Abbes était l'une des villes où la lutte et le mouvement national grandissaient peu à peu. A la veille de la Grande Révolution de Libération Nationale, elle était prête à embrasser l'action révolutionnaire contre l'occupation française.

Nous analyserons dans cet article la problématique relative à des répressions durant la période de la révolution du 1er Novembre 1954.

مقدمة :

على غرار باقي المدن الجزائرية فقد كانت مدينة سيدي بلعباس من المدن التي ترعرع فيها النشاط النضالي و الحركة الوطنية، لتجد نفسها عشية اندلاع الثورة التحريرية الكبرى مهيأة لاحتضان العمل الثوري ضد الاحتلال الفرنسي الذي ظل كابسا على أنفاس المنطقة طيلة عقود طويلة.

سنحاول أن نعالج العمل انطلاقا من إشكاليتين، أولاهما واقع الثورة التحريرية بمدينة سيدي بلعباس ، و ثانيهما سياسة فرنسا القمعية في مدينة سيدي بلعباس أثناء الثورة التحريرية 1962/1954.

أولا / واقع الثورة التحريرية بمدينة سيدي بلعباس:

تذكر المصادر و المراجع التاريخية على أن مدينة سيدي بلعباس عرفت نشاطا سياسيا و حركة نضالية قبل اندلاع الثورة التحريرية ممثلة في انتشار أعضاء و مناضلي مختلف التيارات السياسية التي كانت تتألف منها الحركة الوطنية خاصة مناصري الاتجاه الإصلاحي الممثل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، و حزب الشعب/حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، و الحزب الشيوعي، و لعل هذا النشاط كان نتيجة السياسة الاستعمارية التي رمت إلى تحطيم البنية الاجتماعية و الثقافية لسكان المنطقة،و في هذا الصدد يذكر الأستاذ الدكتور محمد مجاود أن: " **إن السياسة التي سلكها الاستعمار الفرنسي نحو سكان منطقة سيدي بلعباس لم تكتفي فقط بتحطيم البنى الاجتماعية و الثقافية التي ترتكز عليها حياتهم بل كانت ترمي إلى تغيير ملامح حضارتهم و طمس تاريخهم و المساس بقيمهم الدينية و الخلقية.**"[1]. و أمام هذه الأهمية للمنطقة و للموقع الجيواستراتيجي الهام فقد أولت قيادة الثورة اهتماما بالغا بها، فشكلت اللقاءات الدورية و الاجتماعات السرية جسرا بين عمالة وهران و مدينة سيدي بلعباس بغية الإعداد للعمل المسلح الذي سينطلق في الفاتح من نوفمبر عام 1954.

و بسبب الماضي النضالي لسكان سيدي بلعباس و الذي يضرب بعمق جذوره في تاريخ المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي[2] - منذ أن وطأت أقدامه أرض الجزائر- فقد عايشت المدينة حدث اندلاع الثورة التحريرية، و لم يتخلف سكانها عن المشاركة في الفعل الثوري بكل ما لديهم من قوة و جهد، و لم يدخروا في سبيل ذلك مالا و لا ولدا.

رغم ما كان يذاع من أخبار عن أفول نجم منطقة الغرب الجزائري (القطاع الوهراني) و تخلفها عن ركب الثورة، إلا أن وصول كميات كبيرة من الأسلحة و الذخيرة قادمة من مصر عن طريق المغرب الأقصى عام 1955 قد أنعش المنطقة و جعلها تدخل مسار الثورة من أوسع أبوابه، فنشطت بذلك العمليات العسكرية ضد المحتل الفرنسي و تنوعت.[3]

نشط العمل الثوري في سيدي بلعباس على مختلف الأنواع و الأصعدة، فكان للعمل الفدائي، و العمليات العسكرية النصيب الكبير في المنطقة.

1/ العمل الفدائي بمدينة سيدي بلعباس:

شهدت عاصمة سيدي بلعباس عمليات فدائية عديدة و جريئة ضد العدو الفرنسي، و تذكر المصادر التاريخية أن أولى تلك العمليات ظهرت في حي "قمبيطة" (حي العربي بن مهيدي حاليا) عندما قام مجموعة من المناضلين بقطع ثلاث أعمدة هاتفية بالقرب من مزرعة "مدام فرشنو".[4]

و من جملة العمليات الفدائية التي قام بها المناضلون تحت قيادة الشهيد عبد القادر بومليك هي على النحو الآتي:

- قتل عميلا لفرنسا بحي "قمبيطة" مع محاولة قتل سائق بشارع المقبرة أكتوبر 1955.
- انفجار قنبلة بحي " مونبليزير" (Mont plaisir) في 7 أكتوبر 1955 على الساعة العاشرة ليلا استهدفت مسكن دركي فرنسي 'بولو ريموند'.
- قطع الأعمدة التلغرافية و الهاتفية على طول 1 كلم بجانب خط السكة الحديدية الرابط بين مدينة سيدي بلعباس و وهران قرب مزرعة "لومي".
- انفجار قتبلة بمدرسة "قسطون جوليا" يوم 1955/11/15.
- محاولة قتل عميل لفرنسا بجسر المحطة.
- محاولة قتل عميلين قرب دار العسكري و نواحيها.
- محاولة قتل عميل بشارع علي بن أبي طالب قرب مقبرة اليهود.[5]

و من العمليات المنفذة سنة 1956 نجد إعدام العميل 'بركان' في محله بحي القرابة (حي الأمير عبد القادر حاليا)، و العميل دموش بحي بريانطو.

اهتزاز مدينة سيدي بلعباس "**على وقع سلسلة من الانفجاريات من شهر جويلية إلى شهر أكتوبر عام 1957 أسفرت عن مقتل أحد عشر شخصا و إثنى عشر جريحا من المعمرين الفرنسيين**".[6]

و يذكر الأستاذ كركب عبد الحق أن مجموعة من الفدائيين هاجمت " **بعض المعمرين و أطلقت عليهم النار و ذلك بشارع كليبر ما بين قاعة السينما بالماريوم و مخبزة بايا، قتل خلالها ثلاث معمرين هم: مونطانة ريميكن، بن طالة جورج، و إيزابيل بايا.**"[7] و من عناصر الشبكة الفدائية التي كانت تعمل تحت قيادة الشهيد عبد القادر بومليك نجد: نجادي محمد المدعو بكاي، برحال عبد القادر، صايم بلعباس، عمور محمد، بن عمارة عبد القادر، قايد معاشو، و غيرهم كثير.

لقد توالت العمليات الفدائية بمدينة سيدي بلعباس طيلة عمر الثورة و تصاعدت حدتها خلال سنوات 1958، 1959، 1960، 1961،و خلال سنة 1962 عندما صعدت منظمة الجيش السري (O.A.S) من أعمالها الإرهابية ضد المواطنين العزل خاصة عندما أقدمت هذه المنظمة في شهر مارس على إبادة عائلة الزايدي التي كانت تقطن بالطابق الرابع في عمارة بحي سيدي ياسين، بمساعدة أحد الخونة، و الذي تم التعرف عليه لاحقا، فحكم عليه بالتصفية الجسدية التي تمت بالقرب من " **المزبلة العامة الواقعة بطريق ربريدون.**"[8]

2/ العمليات العسكرية بمدينة سيدي بلعباس:

هذا و قد كان للعمليات العسكرية حظ وافر في مواجهة الاحتلال الفرنسي بالمدينة إبان الثورة التحريرية و التي منها:

- قيام فرقة من المجاهدين خلال سنة 1956 بمهاجمة 4 جنود فرنسيين كانوا حراسا بالمقبرة النصرانية و القضاء عليهم.
- تفجير قنبلة بحانة بالقرب من السكة الحديدية بطريق سيدي عبد القادر، أسفرت عن تدمير الحانة و قتل 10 فرنسيين.
- وقوع اشتباك بإحدى مراكز المجاهدين الموجود بشارع المذبحة، أسفر عن استشهاد مجاهدين و قتل 20 جندي فرنسي.[9]
- في 5 جويلية 1960 على الساعة الصفر و 15 دقيقة بشارع مارسال ساردن (شارع قرموش محمد حاليا)، قامت قوات العدو بضرب حصار على مسكن 'سدور بن عمر'، و اشتبكت مع عناصر من جيش التحرير الوطني، نتج عن ذلك تدمير المبنى بأكمله و استشهد من كان بداخله و

السلاح بين أيديهم و هم : " **بن فريو عبد القادر الملقب بدادي، و منصورية بن ديمراد، الملقبة ب' صورية'** ."[10]

تبادل النيران بين مجموعة من المجاهدين و اللفيف الأجنبي بضواحي "فيلاج تيار" في 7 جويلية 1961 في الحديقة العمومية، تمكن خلالها المجاهدون من قتل و جرح الكثير في صفوف جيش الاحتلال، حيث تم إحصاء ما يقارب عن 35 جثة في صفوف اللفيف الأجنبي.[11]

كما شهدت مدينة سيدي بلعباس إبان الثورة التحررية، معارك عديدة و عنيفة، كان لها الأثر البالغ في نفسية الجيش الفرنسي و المعمرين و الخونة، ما تسبب في " **تهديد أمنهم و سلامتهم و بث الهلع و الخوف في نفوسهم...**"[12] و قد أعطت هذه المعارك انطباعا قويا يدل على حضور جيش التحرير الوطني في المنطقة،و يكذب ادعاءات فرنسا بسيطرتها على المنطقة.

ثانيا/ سياسة فرنسا القمعية في مدينة سيدي بلعباس:

قال الشهيد 'المهدي بن بركة': "يجب ألا ننسى مطلقا بأن الشعب الجزائري الذي لا يزال يكافح من أجل استقلاله هو الذي أعطى شرارة المسيرة من أجل تحرير أفريقيا."[13] المعروف أن الشعوب هي الوعاء الحاوي لكل ثورة، و وقودها الذي لا ينضب، و عليه و أمام قوة و صلابة سكان سيدي بلعباس، و بلوغ الثورة التحريرية مرحلة الأوج و الازدهار ابتداء من عام 1958 بعدما تزودت المنطقة بالأسلحة و الذخيرة، لم تجد فرنسا بدا من اعتماد سياسة القمع و الزجر و الإبادة الجماعية ضد السكان، فراحت تعمل على نشر مراكز التعذيب و المعتقلات هنا و هناك على أمل إخماد لهيب الثورة الذي ما فتئ يزداد اشتعالا.

أمام عجز فرنسا في مواجهة الوضع بالجزائر، قررت الحكومة الفرنسية منح الضوء الأخضر للجيش في إدارة شؤون الجزائر، خاصة مع مجيء الجنرال 'ديغول' بعد انقلاب 13 ماي 1958، و هذا لمعالجة الوضع المتفاقم و مواجهة تحديات الثورة بقوة الحديد و النار.

أكد الدكتور خالد بلعربي أن "التعذيب الذي كان يمارسه المحتل الفرنسي في الجزائر خلال حرب التحرير، كان بمثابة نظام قائم".[14] و عليه لم تشد فرنسا الاستعمارية عن هذه القاعدة فراحت تنشأ مراكز التعذيب في مدينة سيدي بلعباس و منها:

- ✓ مركز إدارة العمليات الخاصة (DOP) بالمعصرة القديمة للزيتون الكائن مقرها بطريق معسكر (شارع الشهيد أحمد زبانة)، و الذي يحتوي على قبو به أرضية خشبية وضعت عليها سلاسل و كماشات حديدية لربط اليدين و الرجلين، و يوجد في أحد أركانه صهريج مملوء بالماء العكر يستعمل لغطس رأس السجين فيه.و في فنائه توجد قاعة لاستقبال الجلادين و الحراس، الذين يتناوبون على السجناء في الزنزانات الثمانية المبنية بالإسمنت المسلح."كان يدير هذا المركز نقيب اسمه 'مايتاي'(Maitey) و هو يهودي يساعده 'بلاصار'(Plassard) و الجلاد 'بورقينيون'(Bourguignon). و يتولى 'مايتاي' مهمة استنطاق السجين...ثم يأمر أحد الجلادين القيام بالتعذيب..."[15]
- ✓ ثكنة فيينو (Vieno) التي أنشأت سنة 1861 في وسط المدينة (ثكنة سي بلحسن حاليا)، و التي تعتبر من أهم مراكز التعذيب التي ذاق فيها المناضلين البلعباسيين ويلات و مرارة التعذيب النفسي و الجسدي، و قد أوكلت مهمة الإشراف عليها لضباط كبار أمثال : الكولونيل 'قاردي'(Gardy) و الكولونيل 'طوماس'(Tomasse).[16]
- ✓ مركز المعصرة بحي ماكوني (عدة بوجلال حاليا) الذي كان يعد من أبشع مراكز التعذيب على مستوى المنطقة، و الذي ذاق فيه سكان المدينة من المجاهدين و المدنيين ويلات التعذيب و أشّرها، و الشهادة المجاهد طالب رشيد حول هذا المركز لخير دليل على ذلك.
- ✓ مركز بولحية (Poste Boulahia) الذي يقع بحي الريح يشرف عليه ضباط اللفيف الأجنبي، و هو عبارة عن مركز للاستنطاق و التعذيب.
- ✓ السجن المدني بسيدي بلعباس، و الذي يحتوي على قاعات للأسر و أخرى للاستنطاق و التعذيب، سلط فيه أبشع أنواع التعذيب و التنكيل على الأسرى.
- ✓ السجن المدني بحي القرابة (حي الأمير عبد القادر حاليا)، و الذي كان يشرف عليه عناصر من اللفيف الأجنبي كان عبارة عن سجن و مركز للتعذيب ذاق فيه سكان المدينة مختلف أنواع التعذيب إلا لذنب واحد أنهم كانوا أوفياء لوطنهم العزيز، و كانوا في نظر السلطات الاستعمارية يشكلون خطرا على أمن فرنسا.
- ✓ مركز الانتقاء و الترحيل (CTT) الذي تأسس عام 1955 في معصرة الخمور التابعة لأحد المعمرين.

و قد مارس الجيش الفرنسي كل صنوف التعذيب على سكان مدينة سيدي بلعباس قصد استنطاقهم و اجتثاث المعلومات منهم، و من أبرز وسائل هذا التعذيب نجد:

- استخدام الكهرباء.
- التعذيب بواسطة الماء، و إغراق السجين في الماء العكر.
- إجلاس الضحية على فوهة القوارير و القضبان الحديدية.
- إطلاق الكلاب على الضحية.
- بقر بطون الحوامل و غيرها.
- الكي بالنار بدءا بالعينين، ثم المناطق الحساسة، و صولا إلى الجهاز التناسلي.

و من ضمن المجاهدين الذين تم تسليط عليهم مختلف أنواع التعذيب نجد المجاهد المرحوم بيدار عبد القادر المدعو سي فتحي، و " بن حدو إبراهيم المدعو يوسف، و لعاقب عبد القادر المدعو عبد الباقي، و بودالية الطيب المدعو عبد المجيد، و العسولي عباس المدعو فاتح." و كذلك المجاهد 'بوشنتوف قدور' الذي أكد على أن وسائل التعذيب كانت متنوعة و متعددة منها: "الضرب و استعمال الكهرباء... و من بين التعذيب الممارس عليّ أيضا هو التعذيب بالماء و ذلك عن طريق أنبوب ماء في فمي لينتفخ بطني بعدها يتم الضغط عليّ من معدتي لإخراج الماء من كل جهة من جسمي..." [17]

كما اعتبرت المعتقلات من الوسائل التي اعتمدت عليها الإدارة الفرنسية في القضاء على الثورة بالمنطقة.و قد لجأ الاستعمار إليها قصد خنق الثورة و إحباط العمليات العسكرية بسيدي بلعباس، و التي باتت تؤّرِق منامه و تقلق راحته.

هذا و قد مارست فرنسا كل أنواع المجازر و الإبادة الجماعية ضد الشعب الجزائري. و قد كان لسوء حظ سكان المدينة منها كبيرا، فقد قام مثلا جنود و ضباط الفرقة الثالثة عشرة (13 ^{eme} DI) و الفرقة الثانية للجيش الفرنسي بإلقاء حوالي" 150 شخصا داخل البئر المتواجد بمزرعة كومي (Comet) و كذلك ب 130 شخصا آخرين داخل بئر ثانية بمزرعة كولي (Coulet)".'[18] و هناك العديد من المجازر التي ارتكبها الاستعمار في حق سكان مدينة سيدي بلعباس ربما قد يطول الحديث عنها في هذا المقام الشريف، و الأهم أن بلدية سيدي بلعباس قد التحقت بركب الثورة التحريرة الكبرى و لم تتخلف عن دعم النشاط الثوري أسوة بكامل مناطق القطر الوطني، و هذا تحت شعار "شمولية الثورة و التفاف الشعب حولها".

الخاتمة :

بالرغم من سياسة فرنسا المبنية على القمع و التعذيب و التنكيل و التقتيل و التشريد، فقد صمد المناضلون و المجاهدون لأنهم أدركوا أن الحرية لا تقدم على طبق من فضة، بل تفتك افتكاكا و أنها لها باب بكل يد مدرجة يدق. و أخذ المناضلون و الثوار يشقون طريقهم نحو الحرية و الاستقلال التي تحققت مع الفاتح من جويلية 1962 حين قال الشعب الجزائري برمته كلمته المشهورة "نعم لاستقلال الجزائر، و لا لبقاء الاستعمار بأرض الأجداد الطاهرة المقدسة".و لم يكن هذا كله ليتحقق لولا تضحيات المليون و نصف المليون من شهدائنا الأبرار الذين سقوا بدمائهم الزكية أرض الجزائر فطهروها من دنس المحتل، و ألزموا فرنسا على الخروج صاغرة ذليلة تجر وراءها أذيال الخيبة و الذل و العار.

الاحالات و الهوامش :

1 – محمد مجاود، أبعاد و آثار الاختراق الاستعماري الفرنسي في منطقة سيدي بلعباس،ضمن أعمال ملتقى تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830/1962، ج2، دار الرشاد للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2005، ص 10.

2 – في هذا الصدد يذكر الأستاذ الباحث محمد مجاود أن قبائل المنطقة تعرضت منذ العقود الأولى للاحتلال إلى عملية استنزاف الطاقات البشرية، و يذكر بعض الأمثلة في ذلك من ذلك أن فرقة أولاد علي، و هي بطن من بطون قبيلة بني عامر،قد خسرت ما يقارب من حوالي 9544 نسمة.للمزيد ينظر: محمد مجاود، نفسه، ص 15.

3 - لقد تضمنت اليخت 'دينا' عام 1955 الشحنة التالية موزعة بين الجزائر و المغرب نورد النصيب المخصص للجزائر و الذي كان على النحو الآتي: 204 بندقية 303 ر- 20 رشاش برن 303 ر- 240 خزنة للبرن- 34 كأس إطلاق- 68 بندقية رشاشة تومي 45 ر- 33000 طلقة 303 ر- 166500 طلقة 303 ر للبرن- 356 قنبلة يدوية ميلز "36"- 136000 طلقة 45 ر للتومي- 4000 كبسول طرقي- 50 علبة كبريت هواء- 350 كيلو جلجنايت- 667 فتيل مأمون- 3000 مماسك ذخيرة 303 ر، أنظر: لعرج، (جبران)، المغرب الأقصى و الثورة الجزائرية 1962/1954، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، أشراف محمد مجاود، قسم التاريخ، جامعة سيدي بلعباس، غير منشورة، الجزائر، 2010/2009، ص 154.

4 - يذكر الأستاذ عبد الحق كركب، في رسالته للماجستير الموسومة بـ المنطقة الخامسة من الولاية الخامسة و دورها أثناء الثورة الجزائرية 1962/1954، أن أولى العمليات الفدائية كانت يحي 'عبو' و حي العربي بن مهيدي حاليا (قمبيطة سابقا)، أنظر: عبد الحق، (كركب)، المنطقة الخامسة من الولاية الخامسة و دورها أثناء الثورة الجزائرية 1962/1954، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، إشراف محمد مجاود، قسم التاريخ، جامعة سيدي بلعباس، غير منشورة، 2010/2009، ص 147.

5 - منشورات متحف المجاهد لمدينة سيدي بلعباس، ص9- 10.

6 - خالد، (بلعربي)، تساؤلات حول دور المدينة الجزائرية في مناهضة الاحتلال الفرنسي سيدي بلعباس نموذجا، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 121، السنة 33،منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات، تونس، مارس 2006،ص 14.

7 - عبد الحق، (كركب)، المنطقة الخامسة من الولاية الخامسة و دورها أثناء الثورة الجزائرية 1962/1954،المرجع السابق،ص 150.

8 - نفسه، ص 153.

9 - منشورات متحف المجاهد، ص 12.

10 - عبد الحق، (كركب)، المنطقة الخامسة من الولاية الخامسة و دورها أثناء الثورة الجزائرية 1962/1954،المرجع السابق،ص 155.

11 - خالد، (بلعربي)، تساؤلات حول دور المدينة الجزائرية في مناهضة الاحتلال الفرنسي سيدي بلعباس نموذجا، المرجع السابق، ص 14.

12 - عبد الحق، (كركب)، المنطقة الخامسة من الولاية الخامسة و دورها أثناء الثورة الجزائرية 1962/1954،المرجع السابق،ص 169.

13 - وزاني،(مبارك)، ثورة نوفمبر في الشعر العربي، مجلة الجيش، السنة 18، محرم 1403هـ/نوفمبر 1982،العدد 224،ص 61.

14 - خالد، (بلعربي)،تساؤلات حول دور المدينة الجزائرية في مناهضة الاحتلال الفرنسي سيدي بلعباس نموذجا، المرجع السابق،ص 17.

15 - منشورات متحف المجاهد، ص 16.

16 - منشورات متحف المجاهد،ص 17.

17 - عبد الحق، (كركب)، المنطقة الخامسة من الولاية الخامسة و دورها أثناء الثورة الجزائرية 1962/1954، المرجع السابق، ص 278.

18 - خالد، (بلعربي)، تساؤلات حول دور المدينة الجزائرية في مناهضة الاحتلال الفرنسي سيدي بلعباس نموذجا،المرجع السابق، ص18.